بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 6 يناير 2016

مآلات الجمع بين السياسة والدين في فلسفة الفارابي المدنيّة

الحسين أخدوش
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2015
All rights reserved © 2015

ملخّص:

تسعى هذه الورقة إلى النظر في وجه العلاقة، التي يقيمها أبو نصر الفارابي بين السياسة المدنية وبين الإلهيات الواردة لديه، في كلامه عن الملّة الفاضلة، وذلك من خلال تصوراته الفلسفية في الميتافيزيقا والدينية، التي وسمت جلّ مؤلفاته الفلسفية الأصيلة، التي أسّست للفلسفة السياسية الإسلامية، على حدّ تعبير محسن مهدي[1].

فلئن كان اشتغال الفارابي بالتوفيق بين الدين والفلسفة مؤكّداً، انطلاقاً ممّا أملته عليه مقتضيات ثقافية، وضرورات نظرية ومنهجية اقتضتها فلسفته، فإنّ سعيه إلى الجمع بين الديني الملّي، والسياسي الفلسفي، يمثّل المجال الأكثر استجابةً لتصوّره الفلسفي العام القاضي بتأسيس المشروعية العقلية، والدينية، والسياسية، لممارسة الفكر الفلسفي في ظلّ ثقافة معادية لكلّ ما يتّصل بهذه العقلانية.

انطلاقاً من هذا المعطى، ارتأينا أن نبيّن طبيعة العلاقة بين السياسيات والإلهيات، التي نفضّل تسميتها بالدين، مادام الفارابي يحتفظ، في معرض حديثه عن العلم المدني، بمعالم التصوّر الديني الإسلامي للكون، الذي يدمج ضمنه تصورات فلسفية أخرى مختلفة، إيماناً منه بإمكانية التوفيق بين الفلسفة والملّة، أو ما اصطلح عليه تقليدياً في ثقافتنا الإسلامية: العقل والنقل.

تأسيساً على ذلك، نعتبر بحث الفارابي لهذه العلاقة محاولة نظرية ومنهجية منه لدمج الديني بالسياسي، وذلك استجابةً للبحث عن مجتمع مدني مثالي في صيغة «المدينة الفاضلة». وقد شكّل ذلك لديه مشروعاً فلسفياً نظرياً، قبل أن يكون مشروعاً عملياً سياسياً، حيث أخذ في الاعتبار، في بلورته، ضرورة الانسجام بين متطلّبات الدين الحقيقي (الإسلام)، ومقتضيات النظريات الفلسفية الصحيحة الخاصّة بالاجتماع المدني، والطبيعة، والكون، وتحديداً هنا: الأفلاطونية، والأرسطية، والأفلاطونية المحدثة.

في النهاية، أفضى، عنده، هذا الجمع إلى تأسيس استبداد مطلق باسم العقل والدين معاً، وذلك لمّا جعل من الرئيس الأول (الفيلسوف)، الذي نصّبه حاكماً على هذه المدينة الفاضلة، مركز هذه المدينة، حيث يُخدَم من طرف مرؤوسيه، بينما هو لا يخدمهم إلا من حيث يرأسهم، ويوجّههم نحو ما من شأنه أن يوصلهم إلى السعادة الحقيقية.

1 مهدي، محسن. س، الفارابي وتأسيس الفلسفة السياسية الإسلامية، ترجمة وداد الحاج حسن، دار الفارابي، الطبعة الأولى، 2009م، ص 76

تقديم الموضوع:

تطرح قراءة وتأويل فلسفة الفارابي صعوبات غير يسيرة، نظراً لتداخل الأجزاء المكوّنة لها فيما بينها (الإلهيات، والطبيعيات، والسياسيات، والنفسانيات)، ثمّ كذلك، نظراً لجمعها بين عناصر ثقافية متباينة، ومختلفة المشارب: فلسفية، وعلمية، وكلامية – دينية، وسياسية، كثيرة. يقضي تعدُّد كلّ هذه الأجزاء المشكّلة لهذه الفلسفة على الباحث أن يتحلّى بالحيطة والحذر، إذا ما أراد أن يقرأ جانباً من جوانب هذا الفكر المركّب، والمختلط أيّما اختلاط.

من هذا المنطلق، سنحاول، في هذه الورقة، التزام هذا الحذر الضروري، ونحن نبحث طبيعة العلاقة التي يقيمها هذا الفيلسوف بين الجانبين المهمّين في فلسفته المدنية، ونقصد تحديداً: الإلهيات والسياسيات؛ أو بتعبيرنا الحاضر: الدين والسياسة. فالمعلوم أنّ الفارابي قد عمد، في تواليفه الأخلاقية والمدنية، إلى طرق شؤون الاجتماع المدني، انطلاقاً من تصورات نظرية في الميتافيزيقا، والفلك، والطبيعة، والسيكولوجيا، وذلك إيماناً منه بأهمية الجانب النظري للجوانب العملية. غير أنّه لم يكتفِ بهذا الأمر؛ بل ذهب بعيداً في كتابة حول (**الملّة**)، حين بلور تصوراً خاصّاً به يمزج فيه بين السياسيات والإلهيات فيما يطلق عليه «النبي-الفيلسوف»، أو بلفظة أخرى، «الملك الرئيس»، و«الرئيس الأول» للمدينة الفاضلة، محاكاة منه لصورة الإله الذي يرأس الكون. فكيف ذلك؟

استشكال الموضوع:

نقترح التعبير عن هذه الإشكالية في التساؤلات الآتية:

ما طبيعة العلاقة التي يقيمها الفارابي بين الإلهيات والسياسيات الواردة لديه في كتب المدنية، لاسيّما تلك النصوص الفلسفية، التي يبدؤها بالأمور الميتافيزيقية، وينتهي فيها بالشؤون السياسية (**آراء أهل المدينة الفاضلة، كتاب السياسة المدنية، كتاب الملّة**)؟

كيف نستطيع أن نفسّر تواتر هذين الجانبين «الإلهيات والسياسيات» المنفصلين شكلاً ومضموناً في كلّ من كتاب (**آراء أهل المدينة الفاضلة**) و(**السياسة المدنية**)؟

أنستطيع المجازفة والقول إنّ القسم الأوّل المخصّص للإلهيات في تلك الكتب هو بمثابة الأساس النظري، الذي ينبغي أن تنبني عليه السياسة والاجتماع المدني، أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد تمهيد

ميتافيزيقي للدخول في مناقشة السياسة وشؤونها بما يؤسّس للمدينة الفاضلة، التي تُعدّ بمثابة هدفها الفلسفي النهائي؟

ما النتيجة المترتّبة على هذا التداخل المقصود بين السياسة والدين في فلسفة الفارابي؟

تحليل الإشكالية:

قبل الشروع في تحليل ومناقشة هذه الإشكالية، نودُّ، بدايةً، التذكير بأنّ طابع الجمع بين الدين والسياسة، الذي كان يغلب على النصوص الفلسفية والمدنيّة للفارابي: سواء في كتابه (**السياسة المدنية**) أم في كتاب (**آراء أهل المدينة الفاضلة**) أو في كتاب (**الملّة**)، إنّما يمكن ردّه إلى مجموعة من الأسباب نجملها فيما يأتي:

- السبب الأوّل: انتماء الفارابي إلى تقليد فلسفي يولي أهمية قصوى للسياسة المدنية، وهو التقليد الأفلاطوني الأرسطي.

- السبب الثاني: انتماء هذا الأخير إلى فترة تاريخية كان من أبرز سماتها التفكُّك السياسي والمدني، وسيادة نزاعات كلامية ودينية، وتيارات سياسية متصارعة حول قضايا الدين، والسلطان، والفكر، والمجتمع.

- السبب الثالث: انشغال هذا الفيلسوف الكبير بأسباب تحصيل السعادة الحقيقية، سواء في الحياة المدنية الدنيوية، أم في الحياة الأخروية، انسجاماً مع منظوره الغائي للوجود.

- السبب الرابع: سيادة الطابع التوفيقي التوحيدي في فكره الفلسفي عامّةً، والمدني خاصّةً، بما يفيد ضرورة تأسيس السياسة والدين تأسيساً عقلانياً وفلسفياً يجنّب أفراد مدينته الفاضلة الاعتقاد بالآراء المتناقضة، والضالّة، والجاهلة، وذلك من أجل جعلهم متّحدين في اجتماع مدنيّ فاضل واحد، لا مفترقين ومتنازعين كما في الاجتماعات المدنية الجاهلة.

ولبحث هذه الأسباب وغيرها، التي قرّرنا الانطلاق منها لسبر إشكالية علاقة الديني بالسياسي في فلسفة الفارابي المدنية، نعمد، فيما سيأتي من هذه الورقة البحثية، إلى مناقشة الموضوع ككلّ من خلال الفرضية الآتية:

إذا كان الفارابي يؤسّس تصوراته السياسية والمدنية (العلم المدني) انطلاقاً من تصوّراته في الميتافيزيقا والإلهيات (العلم النظري)، ما حدا به إلى الجمع بين الديني والسياسي في تقرير أطروحته في الاجتماع المدني

الفاضل، فهل سنقول: إنّه كان مدفوعاً بمقاصد معيّنة حتّمت عليه الجمع بين السياسة في صيغة العلم المدني العملي، واللاهوت في صيغة العلم النظري الميتافيزيقي؟ إذا كان الأمر كذلك، فما الجواب الممكن لتفسير هذا الخلط بين الإلهيات والسياسيات في فلسفته المدنية؟

لمقاربة هذه الفرضية، نقترح اعتماد منهجية تحليلية تقوم على استنطاق بعض من نصوص هذا الفيلسوف، التي تناول فيها، بالمناقشة والتقرير، هذه الإشكالية. ولأجل القيام بذلك نقترح أن نجمل تصوّرنا الموجّه لبحث هذه الفرضية في الدعوى الآتية:

إنّ الفارابي، وهو يعالج القضايا السياسية والدينية في نطاق العلم المدني، إنّما يفعل ذلك لأنّه يَعدّ الآراء الإلهية والميتافيزيقية الصحيحة ضروريةً للحياة المدنية والسياسية للكائن المدني، لما لها من علاقة مباشرة بخلاصه الدنيوي والأخروي، حسب تصوراته في السعادة؛ لذلك من المشروع، نظرياً وعملياً، ربط الإلهيات بالسياسيات ربطاً قوياً، انسجاماً مع الرؤية الفلسفية الصحيحة لطبيعة الوجود البشري، ولاجتماعه المدني، الذي يروم تحصيل هذه السعادة التي يؤمن بها الفيلسوف الحقّ.

وللتحقّق من هذه الدعوى، يلزم، أوّلاً، إيراد المفهوم الذي يستعمل به الفارابي السياسة المدنية، ويوظّفها به، لأجل معرفة حججه في الجمع بين الإلهيات والسياسيات في فلسفة مدنية تتوجه إلى الجمهور الواسع. يظهر هذا المفهوم الخاصّ لديه بالسياسة المدنية تحديداً، عندما يدعو إلى ضرورة وضع قول فلسفي حقيقي في العلم المدني ينهض بما يأتي: إنّه يلزم الباحث في العلم المدني أن يفحص أصناف الأفعال، أو السير الإرادية والأخلاقية، والشيم، والقوانين، التي تنبني عليها هذه الأفعال، فيبحث عن الغايات التي من أجلها تفعل تلك الأفعال، وكيف ينبغي أن تكون موجودة في الإنسان، ما شأنه أن تكون له علاقة بسعادته الحقيقية، وذلك عن طريق إثارة العلم الإلهي (الفلسفة النظرية)، نظراً لوجود تداخل بين علم السياسة (الذي يُعنى بالمبادئ الأولية للحياة المدنية)، وهذا العلم النظري الإلهي (الذي يعزّز الآراء الصحيحة حول الكون).

إذاً، كلّ من العلمين الإلهي والسياسي يشتغل بمسألة إنسانية واحدة في غاية الأهمية، ألا وهي: البحث عن السعادة، التي هي أصلاً هدف وجود الإنسان في الحياة، من حيث هي «الخير على الإطلاق»[2].

ولعلّ ما يُفسّر هذا المفهوم الخاصّ للسياسة لدى الفارابي، وهو إيمانه القوي باعتبار سعادة الإنسان القصوى، وكماله المطلق، أمرين يتوقفان ليس على أفعاله فحسب، بل، أيضاً، على آرائه النظرية الصحيحة في

2 الفارابي، كتاب السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات، دار المشرق، بيروت/ لبنان، ط 2، سنة 1993م، ص 72

الشؤون الإلهية والمدنية على حدّ سواء. وبهذا الخصوص، نجده يصرّح قائلاً: إنّ «السعادة التي يعقلها الإنسان، ويشعر بها، إنّما تحصل بالقوّة الناطقة النظرية، وليس بشيء آخر من سائر القوى الأخرى، وذلك إذا استعمل المبادئ والمعارف الأولى التي أعطاه إياها العقل الفعال»[3].

أمّا مقصوده من هذا التصريح، فهي ضرورة أن تكون للإنسان آراء صحيحة، تحصل له باستعماله لقوّته الناطقة (أي العقلية)، التي تستند إلى المعارف الأولى لديه، المأخوذة من العقل الفعّال. تأسيساً على ذلك، يظهر أنّ مقصوده من كتابه الرئيس (**آراء أهل المدينة الفاضلة**) إنّما هو التركيز على أهمّية الآراء النظرية، التي يجب أن يعتقد بها سكان هذه (المدينة الفاضلة)، حيث يلزم أن تكون بدايةً آراء صحيحة حتى تصبح فاضلة، وبعد ذلك يتأتّى أن يصل بها أهلها إلى تلك السعادة الحقيقية، التي تحدّث عنها، باعتبارها الكمال النظري الحقيقي المنشود.

ولأجل توضيح كيف يحصل هذا الأمر، سوف نحاول، بدايةً، أن نركّز حديثنا على ماهيّة طبيعة هذه الآراء، التي ينبغي لها أن تكون العماد النظري الأساسي للممارسة السياسية والأخلاقية في مدينته الفاضلة. بعد ذلك ننتقل إلى بحث أوجه تداخل الكلام في هذه السياسة مع الحديث في الإلهيات، التي يرى الفارابي أنّ الاعتقاد بها يؤسّس للسياسة الفاضلة، مع ما يستدعيه ذلك من خوض فلسفي في بعض التصورات الميتافيزيقية والكوسمولوجية المأخوذة من نظرية الفيض الأفلاطونية، حيث يتعلّق الأمر، أساساً، عند الفارابي، بنظرة أفلاطونية محدثة للكونيّات والإلهيات، قام بمزجها بسياسة أفلاطون، وعلم نفس أرسطو؛ لذا تشكّل هذه التصورات لديه نظرة «أنثروبومورفية»[4] تسعى إلى دراسة الكون بالنسبة إلى حياة الإنسان، فترى هذا الأخير (الإنسان النوع) في الكلّ (الكوسموس)، ثمّ تتصوّر هذا الكلّ كوسط يحقّق فيه هذا الإنسان غاياته القصوى، عن طريق المعرفة النظرية، التي تسعفه في إدراك وجوده الخاص[5]. وبعد عرض هذه النظرة الخاصّة للسياسة والإلهيات، نقترح إبراز أوجه التناظر القائمة بين مدينة الإنسان السياسية، ومدينة الإله الكوسمولوجية، لننتهي، بعد ذلك، إلى استخلاص ما يترتّب على هذا الزعم من خُلاصات ونتائج.

تحقيقاً لهذا الغرض، يلزمنا أن نحدّد ما هذه الآراء الإلهية الضرورية لأهل «المدينة الفاضلة»، من حيث كونها تصف كوسمولوجيا مدينة الله في الوجود، التي ينبغي أن تناظرها مدينة الإنسان الفاضلة في الحياة

3 الفارابي، السياسة المدنية، تحقيق فوزي متري النجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت/ لبنان، ط1، سنة 1964م، ص 73

4 «Anthropomorphisme»: نظرة دينية وفلسفية تخلع الصفات الإلهية والكوسمولوجية على الإنسان.

5 بنعبد العالي، عبد السلام، الفلسفة السياسية عند الفارابي، دار الطليعة، بيروت ، ط 4، 1997م، ص 123

الاجتماعية، ثم علينا، أيضاً، أن نحدّد كيف هي بنية مدينة الإله (الكوسموس)، وكيف تناظرها مدينة الإنسان، بما هي التجسيد الواقعي الحيّ للتداخل بين السياسي والديني.

أوّلاً: الكوسمولوجيا السياسية أو في الجمع بين مدينتي الإله والإنسان:

نعتقد أنّ قارئ فلسفة الفارابي المدنية لن يجد صعوبات كثيرة، حين سيكتشف أنّ هناك تناظراً بين رئاسة الله للكون، ورئاسة النبي- الفيلسوف للمدينة البشرية الفاضلة. ففيما يبدو، غالباً ما تجعل كوسمولوجية الفارابي من الإله رئيساً أوّلاً ومطلقاً للكون، حيث يرأس جميع موجوداته، على اعتبار أنّه مبدؤها الأوّل المُوجد لها. وفي الحقيقة، يُعدّ هذا الإله من يُسيّس هذا الكون برمّته؛ لذا يحكمه كلّه، بما في ذلك المدينة البشرية الفاضلة، التي يحكمها عن طريق رئيسها النبي- الفيلسوف المتّصل بالعقل الفعّال، والذي، من خلاله، يحكم عالم ما تحت فلك القمر.

إذاً، لا عجب في أن نجد الفارابي يركّز كثيراً على دور «الرئيس الأول» في مدينته الفاضلة، وعلى أهميّته لتسيير الاجتماع المدني، ويَعدّه قطب الرحى، الذي لا يمكن للمدينة أن تقوم من دونه. إنّه الذي يتلقّى الوحي من الإله، عبر اتصاله بالعقل الفعّال، فترتسم، بذلك، في نفس هذا الرئيس الأوّل تلك الصور العقلية الأولى للمبادئ، التي ستصلح أن يقوم عليها اجتماع أهل المدينة الفاضلة التي سيرأسها.

بهذا الشكل ينبني العلم المدني، الذي يُمارِس، عن طريقه، الرئيسُ الأول تدبيره وتسييره لهذه المدينة، على الإلهيات أو الدين بالمعنى الملّي للكلمة، وذلك لأنّ المعطى الملّي أصبح ضرورياً لصلاحية تلك الآراء النظرية، والأفعال السلوكية التي ينبغي لها أن تسود الاجتماع المدني الفاضل. ففي كتابه (**تحصيل السعادة**)، يعرّف الفارابي هذا العلم، عندما يبيّن لمن يريد أن يحصّل السعادة بالعلم المدني، أنّه:

«علم الأشياء، التي بها أهل المدن بالاجتماع المدني ينال السعادة، كلّ واحد بمقدار ما أُعدّ له بالفطرة. فيتبيّن له أنّ الاجتماع المدني، والجملة التي تحصل من اجتماع المدنيين في المُدن، شبيه باجتماع الأجسام في جملة العالم، فيتبيّن له، أيضاً، في جملة ما تشتمل عليه المدينة والأمة، نظائر ما تشتمل عليه جملة العالم. فكما أن في العالم مبدأ ما أوّلاً، ثم مبادئ أخرى على ترتيب، وموجودات عن تلك المبادئ، وموجودات أخرى تتلو تلك الموجودات على ترتيب، إلى أن تنتهي إلى آخر الموجودات رتبة في الوجود، كذلك في جملة ما تشتمل عليه الأمة، أو المدينة مبدأ ما أوّل، ثم مبادئ أخرى تتلوه، ومدنيون آخرون يتلون تلك المبادئ، وآخرون يتلون

هؤلاء، إلى أن ينتهي إلى آخر المدنيين رتبةً في المدينة والإنسانية، حتى يوجد فيما تشتمل عليه المدينة نظائر ما تشتمل عليه جملة العالم»[6].

يكشف هذا التعريف الشامل للعلم المدني السياسي كيف أنّ فهم دور الرئيس الأول في المدينة الفاضلة لا يتأتّى إلا بفهم مكانة الله -تعالى- في الكون، ودوره في إيجاده وتدبيره؛ لذا يبرّر هذا التماثل، الذي يقيمه الفارابي بين الإله، رئيساً للكون، والفيلسوف-النبي، رئيساً للمدينة الفاضلة، تلك الطريقة الفريدة التي يتحدّث بها عن المدينة الفاضلة، بأن يورد، أوّلاً، تصوّراته حول الإلهيات والكونيات، وذلك قبل أن يتطرّق فيما بعد إلى المسائل السياسية، التي يتأتّى الكلام فيها، بالحديث، فحسب، عن شكل المدينة المثالية ومضاداتها من المدن الأخرى: الجاهلة، والفاسقة، والضالة، كما نجد ذلك مفصّلاً في كتابه (**آراء أهل المدينة الفاضلة**)، أو في كتابه الآخر الملقّب (**السياسة المدنية**).

هكذا، دأب الفارابي على أن يمهّد للحديث عن السياسة المدنية بالحديث عن المبادئ النظرية القصوى، التي تحكم الوجود في كليّته، ذلك أنّه كان يرى، في تلك المبادئ النظرية العامّة، الصورة المثالية لما ينبغي أن تكون عليه مدينة الإنسان الفاضلة على الأرض، اعتباراً لكونها أنموذجاً مصغّراً للكون الكبير، بما هو مدينة الله وملكوته. ومتى عدنا إلى كتابه (**الملّة**) نصادف لديه نصّاً مطوّلاً يبيّن فيه كيف أنّ الآراء، التي ينبغي أن يَعتقد بها أهل الملّة الفاضلة، هي نفسها تلك الآراء النظرية التي ينبني عليها العلم الإلهي، وهي تشتمل على:

«ما به يوصف الله تعالى، ثم ما يوصف به الروحانيون، ومراتبهم في أنفسهم، ومنازلهم من الله تعالى، وما يفعل كلّ واحد منهم، ثمّ كون العالم، وما يوصف به هذا العالم، وأجزاؤه، ومراتب أجزائه، وكيف حدثت سائر الأجسام عن التي هي من الأجسام أصولاً، ومراتب هذه، وكيف ارتباط الأشياء التي يحتويها العالم بعضها ببعض وانتظامها، وأنّ كلّ ما يجري فيها عدل لا جور فيه، وكيف نسبة كلّ واحد منها إلى الله تعالى، وإلى الروحانيين، ثم كون الإنسان وحصول النفس فيه، والعقل ومرتبته من العالم، ومنزلته من الله، ومن الروحانيين، ثمّ أن توصف النبوّة ما هي، والوحي كيف هو، وكيف يكون، ثمّ ما يوصف به الموت والحياة الآخرة، والسعادة التي يصير إليها الأفاضل والأبرار، والشقاء الذي يصير إليه الأراذل والفجّار، في الحياة الأخرى»[7].

6 الفارابي، تحصيل السعادة، تحقيق جعفر آل ياسين، دار الأندلس، ط 4، (د.ت)، ص ص 63- 64

7 الفارابي، كتاب الملة، تحقيق محسن مهدي ، دار المشرق، بيروت، ط 3، 2001م ، ص ص 44 - 45

ثمّ الشيء نفسه نجده في تلخيص كتاب (**آراء أهل المدينة الفاضلة**)[8]، عندما يؤكّد أنّ الأشياء التي ينبغي الاعتقاد بها، لدى أعضاء هذه المدينة، هي نفسها الآراء التي وردت في النصّ السابق، وإن بطريق التلخيص. فهو يذكر، في الفصل الأول منه، ما ينبغي أن يوضع لله في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وكيفية تدبير من في السماء لما في الأرض، وما في العالم الأرضي، وكيفية تشكيل الكائنات فيه، ثمّ ما في الإنسان، وقواه النفسانية، والعقل، واتصاله بالعقل الفَعّال، والعقول السماوية. ثمّ فيما بعد الاجتماعات الإنسانية وأصنافها، من خلال المدينة الفاضلة ومضاداتها. وأخيراً يُورد أصناف السعادات والشقاء في الآخرة، وكذا الأصول والظنون الفاسدة، التي منها تفرّعت الآراء، والاجتماعات، والرئاسات، الجاهلية[9].

ويتبيّن، من كلّ هذه النصوص المدنية المختلفة، أنّ الفارابي كان يسعى إلى تشييد مدينته الفاضلة، على غرار تصوراته حول الكون والكوسمولوجيا، أو بتعبير الجابري: «بناء مدينة الإنسان على غرار مدينة الله»[10].

إذاً، يصوّر المعلّم الثاني، في أكثر من نصٍّ له، كيف أنّه لا يمكن للمدينة البشرية أن تكون فاضلة ما لم تكن متناغمة مع الكون، ما يعني أنّه يركّز على ضرورة أن تصبح هذه المدينة على شاكلة النظام الإلهي الكوسمولوجي المحكوم بتراتبية شرفية، يتبوأ الإله مرتبة الأعلى، فالثواني، ثم العقل الفعّال، ففلك ما تحت القمر (عالم الكون والفساد)، الذي يطاله التغيّر والتبدّل. وبما أنّ الله -تعالى- هو المدبّر الحقيقي للعالم، فإنّه، كذلك، المدبّر للمدينة البشرية التي تقع داخل هذا العالم. لكن تدبيره للعالم ككلّ يكون بوجه، وتدبيره للمدينة الفاضلة بوجه آخر، إلّا أنّه يُوجد بين التدبيرين تناسب تماماً مثلما يوجد بين أجزاء العالم، وأجزاء المدينة أو الأمّة الفاضلة، تناسب أيضاً.

لذلك يلزم أن يكون بين أجزاء الأمة الفاضلة تناسب، مثلما يلزم أن يكون بين أجزاء الأمّة الفاضلة ائتلاف، وارتباط، وانتظام، وتعاضد بالأفعال. يقول في ذلك:

«فالذي يُوجد في أجزاء العالم من الائتلاف، والارتباط، والانتظام، والتعاضد بالأفعال، عن الهيئات الطبيعية التي لها، يجب أن يوجد، كذلك، مثلها في أقسام الأمّة الفاضلة، عن الهيئات والملكات الإرادية التي لها»[11].

8 الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق ألبير نادر، دار المشرق، بيروت، ط 8، 2002م.

9 الفارابي، فصول مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة، انظر: كتاب الملة، مصدر سابق، ص 80

10 الجابري، العقل الأخلاقي العربي، المركز الثقافة العربي، بيروت، الدار ا لبيضاء، الطبعة الأولى، 2001م، ص 357

11 الفارابي، كتاب الملة، مصدر سابق، ص ص 64- 65

هكذا، نجد، في مثل هذه المقارنة، الشاهد الصريح على أنّ الفارابي إنّما كان يريد بحث أمور السياسة في ارتباط تامّ ببحث أمور الكوسمولوجيا والإلهيات (أي الدين). لكن التساؤل الذي يفرض نفسه مرّة أخرى هو: لماذا يقصد المعلم الثاني التطرّق إلى مثل هذه الأمور السياسية في معرض كلامه عن الأشياء الميتافيزيقية والدينية؟ كيف يمكن تبرير طرق الأمور الإلهية في سياق الكلام عن مبادئ الاجتماع المدني؟

يعرض الفارابي، في القسم الأوّل من كتاب (**السياسة المدنية**)، نظام الكون عرضاً تركيبياً منظّماً، حيث يقدّم فيه مراتب الموجودات متّبعاً نظاماً تراتبياً هرمياً صارماً؛ إذ يرتّب بعضها فوق بعض، مبتدئاً من أكملها وجوداً إلى أن ينتهي بأنقصها في الوجود[12]. وهكذا، نجده يقسّم هذه الموجودات إلى ثلاثة أقسام: الموجودات المفارقة، والموجودات الملابسة للأجسام، ثمّ التي هي أجسام. أمّا الموجودات المفارقة، فيضع لها ثلاث مراتب: أوّلها مرتبة الله، وثانيها مرتبة العقول المفارقة أو الثواني، ثمّ ثالثها مرتبة العقل الفعال في الأخير. بينما يرتّب الموجودات الملابسة للأجسام، بدورها، في ثلاث مراتب: النفس، والصورة، والمادة. ثمّ أخيراً يتكلّم على مرتبة الأجسام، وهي ستّة أجناس: الأجسام السماوية، والحيوان الناطق، ثم الحيوان غير الناطق، والنبات، فالمعادن، والأسطقسات الأربعة[13].

تؤلّف هذه الموجودات، مجتمعةً في كتاب (**السياسة المدنية**)، سلسلة من المراتب المتصلة في نظام تراتبي واحد، انسجاماً مع قول الفارابي بالكون الواحد المتفاضل الأجزاء؛ لذا كان من اللازم أن يكون إبداع العالم، وكذا حفظ وجوده، شيئاً واحداً أيضاً، ومن ثمّ أصبح العالم لديه مظهراً لوحدة الذات الإلهية، وأنّ نظامه البديع مظهر للعدل الإلهي. يقول المعلم الثاني بهذا الخصوص:

«المبادئ، التي بها قوام الأجسام والأعراض، التي لها ستّة أصناف، لها ستّ مراتب عظمى، كلّ مرتبة منها تحوز صنفاً منها. السبب الأوّل في المرتبة الأولى، الأسباب الثواني في المرتبة الثانية، العقل الفعّال في المرتبة الثالثة، النفس في المرتبة الرابعة، والصورة في المرتبة الخامسة، والمادة في المرتبة السادسة. أمّا في المرتبة الأوّلى منها، فلا يمكن أن يكون كثيراً؛ بل واحداً فرداً فقط، وأمّا ما في كلّ واحدة من سائر المراتب، فهو كثير. فثلاثة منها ليست هي أجساماً، ولا هي في أجسام: وهي السبب الأوّل والثاني، والعقل الفعّال. وثلاثة هي في أجسام، وليست ذواتها أجساماً: وهي النفس، والصورة، والمادة. والأجسام ستّة أجناس: الجسم

12 الفارابي، السياسة المدنية، مصدر سابق، الطبعة الثانية، ص 31

13 المصدر نفسه، ص 32

السماوي، والحيوان الناطق، والحيوان غير الناطق، والنبات، والجسم المعدني، والأسطقسات الأربعة. والجملة المجتمعة من هذه الأجناس الستّة من الأجسام هي العالم»[14].

يقسّم الفارابي العالم، في جملته، بموجب هذا القول، إلى قسمين: قسم أوّل خاصّ بالعالم العلوي، وهو الذي يمثّل عالم العقول والأفلاك السماوية المتّسم بالكمال والخلود؛ وقسم ثانٍ خاصّ بالعالم السفلي، ويمثّل كلّ ما يوجد تحت فلك القمر، وهو عالم الكون، والفساد، والنقصان. فكما أن لموجودات العالم العلوي مراتب أعلاها مرتبة العقل الأوّل، فكذلك لموجودات العالم السفلي مراتب أعلاها مرتبة الإنسان، وأدناها مرتبة العناصر الأربعة. لكن يحكم هذا العالم بقسميه العلوي والسفلي نظام كوسمولوجي واحد وثابت، وهو الذي يرأسه المبدأ الأوّل، الذي هو الله، الذي ينبغي أن يعتقد به الإله الواحد الأحد.

فالله، إذاً، هو السبب القريب لوجود الثواني (الملائكة، وهي عنده بمثابة عقول سماوية)، ولوجود العقل الفعّال. أمّا هذه الثواني، فهي أسباب وجود الأجسام السماوية، أو عنها حصلت جواهر هذه الأجسام، وكلّ واحد منها يلزم عنه وجود واحد من الأجسام السماوية، فأعلى الثواني رتبة يلزم عنه وجود السماء الأولى، وأدناها يلزم عنه وجود الكرة التي فيها القمر. والمتوسطات التي بينها يلزم عن واحد منها وجود كلّ واحد من الأفلاك التي بين هذين الفلكين، وعدد الثواني على عدد الأجسام السماوية؛ لذا هي (الثواني) التي ينبغي أن يقال فيها الروحانيين، والملائكة، وأشباه ذلك، كما يزعم ذلك[15].

إذاً، ما يميّز العالم العلوي هو الكمال والثبات، وهو الذي يؤثّر في العالم السفلي تأثيراً مجملاً، من جهة ما يجب أن يكون فيه من نظام كلّي[16]، عبر العقل الفعّال، الذي فعله العناية بالحيوان الناطق، والتماس تبليغه أقصى مراتب الكمال، الذي للإنسان أن يبلغه، وهو السعادة القصوى، وذلك بأن يجعل الإنسان يصير في مرتبة العقل الفعّال[17]. أمّا الجزئيات التي في العالم السفلي (عالم الكون والفساد)، فإنّها يؤثّر بعضها في بعض، وذلك وفقاً لقوانين تدلّ عليها التجربة. ولمّا كان العالم العلوي يتناول العالم السفلي في جملته، فإنّ هذا التأثير يشتمل على ناحية الخير فحسب؛ وهذا ما يعبّر عنه الفارابي بقوله:

14 الفارابي، السياسة المدنية، مصدر سابق، ص 31

15 المصدر نفسه، ص ص 31- 32

16 المصدر نفسه، ص 55

17 الفارابي، السياسة المدنية، ص 32

«يحصل عن الأجسام السماوية، وعن اختلاف حركاتها، الأسطقسات أوّلاً، ثم الأجسام الحجرية، والنبات، ثم الحيوان غير الناطق، ثم الحيوان الناطق. ويحدث أشخاص كلّ نوع منها على أنحاء من القوى كثيرة لا تُحصى. ثمّ لم تكتفِ بهذه القوى، التي جعلت في كلّ نوع منها في أن تفعل أو تحفظ وجودها، دون أن صارت الأجسام السماوية، أيضاً، بأصناف حركاتها، يعين بعضها على بعض، ويعوق فعل بعضها عن بعض، على تبادل وتعاقب. حتى إذا أعان هذا، في وقت ما، على ضدّه، عاقه في وقت آخر، وأعان ضده عليه، وذلك بما يزيد من الحرارة، مثلاً، أو البرودة، أو ينقص منها فيها شأنها أن يفعل وينفعل بالحرارة أو بالبرودة، فإنّما تزيّدها أحياناً ونقصها أحياناً. والأجسام التي تحتها، لأجل اشتراكها في المادة الأولى، وفي كثير من المواد القريبة، ولتشاكل صور بعضها، وتضاد صور البعض، صار بعضها يعين بعضاً، وبعضها يعوق بعضاً، إمّا على الأكثر، وإما على الأقل، وإما على التساوي، على حسب تشاكل قواها وتضادها. فإنّ المضاد يعوق، والمشاكل يعين، فتشتبك هذه الأفعال في الموجودات الممكنة وتأتلف، فيحصل عنها امتزاجات كثيرة. إلا أنّها تجرى عند اجتماعها على ائتلاف، واعتدال، وتقدير، يحصل به لكل موجود من الموجودات قسطه المقسوم له من الوجود بالطبع، إمّا بحسب مادته، وإما بحسب صورته، وإما بحسب الأمرين جميعاً. وما كان بحسب صورته فإما أن يكون لذاته، وإمّا أن يكون لغيره، وإما أن يكون للأمرين جميعاً. فالحيوان الناطق، أمّا بحسب صورته فليس هو لأجل نوع آخر أصلاً، لا على طريق المادة، ولا على طريق الآلة والخدمة»[18].

يبرز هذا النص الطويل كيف أنّ تراتبيّة موجودات العالم إنّما هي كذلك؛ لأنّ الموجودات الأعلى شرفاً تحكم الموجودات الأدنى منها شرفاً؛ ومن ثمّ فإنّ الكون بجزأيه: العلوي والسفلي، إنّما يخضع كلّه لرئاسة الله تعالى، باعتباره المبدأ الأوّل الذي أوجده؛ لذا تتجسّد هذه التراتبية أكثر في تأثير المراتب العلوية منها على السفلية، فتكون السفلى في خدمة العليا، بما يُفيد وجود وحدة أنطولوجية بين سائر هذه الموجودات؛ وهكذا يصبح الكون كلّه مرتباً ترتيباً تفاضلياً حسب منزلة وشرف كلّ موجود فيه.

وبما أنّ الله هو السبب الأوّل، الذي يصدر عنه كلّ شيء، بدءاً من العقل الأوّل، مروراً بالعقول التي تليه، وانتهاءً بالعقل الفعّال؛ فإنّ كلّ عقل من هذه العقول هو بمثابة مبدأ لما بعده. لذا أصبح لكلّ فلك من الأفلاك الموجودة في السماء عقل يدبره، وكذا نفس تحرّكه حركة دائرية دائمة خالدة. معنى هذا كلّه أنّ الله –تعالى- هو الرئيس المدبّر لكل هذه الموجودات الكونية[19]، فمنه يستمد كلّ موجود وجوده، ومن ثم فهو علّة غائية لجميع

18 المصدر نفسه، ص ص 62 – 63

19 الفارابي، كتاب الملة، مصدر سابق، ص 62

هذه الموجودات التي تؤمّه، وتقتفي أثره. وعلى هذا المنوال، ينبغي أن تكون مدينة الإنسان الأرضية بما هي صور مصغّرة عن هذا الكون الكبير[20].

أمّا دور العقل الفعّال، فيكمن في تدبير ما يفيض من الله عبر العقول السماوية إلى ما تحت فلك القمر، وتصريفه للعقل الإنساني على شكل صور ومعقولات، فيفيد الإنسان شيئاً يرسمه في قوّته الناطقة؛ ومنزلة ذلك الشيء من النفس الناطقة، كمنزلة الضوء من البصر؛ أي أنّ النفس الناطقة إنّما تعقل بذلك الشيء العقل الفعّال، وفيه تصير الأشياء التي هي معقولة لديها بالقوّة معقولة بالفعل[21].

معنى ذلك كلّه أنّ تلك المعقولات، التي تُوجَد في النفس البشرية، لا تحصل لها بالفعل إلا بتأثير من العقل الفعّال، الذي يمكّن هذه النفس من تجريد الصور من موادها، ليصبح لديها، فيما بعد، مبادئ أولية للمعرفة والإدراك. وبما أنّ المعقولات الموجودة في العقل الفعّال أشرف من الصور الجسمانية الملابسة للمادة، كان إشراق هذه المعقولات على العقل الإنساني هو ما يفسّر وحي الله –تعالى- إلى النبيّ عبر العقل الفعال. أمّا الفيلسوف، فقد يصل إليها بوساطة قوّة تجريده الفكري وممارسته النظرية فحسب.

إنّ الفيلسوف والنبي، إذاً، هما الفردان القادران والمؤهلان لوحدهما للربط بين ملكوت الله ومدينة الإنسان الفاضلة؛ لذلك عليهما تقع مهمّة تدبير المدينة الأرضية، ما دام طبعهما الفريد يسمح لهما بالنهوض بهذه المهمة. فالنبيّ يستطيع أن يضطلع بذلك عبر قوّته المخيّلة، بينما الفيلسوف عبر نظره الفلسفي، الذي يسمح له بالانتقال بعقله من مجرد عقل بالملكة (هيولاني) إلى عقل بالفعل، ثمّ إلى عقل مستفاد في الأخير، وذلك عندما يتصل بالعقل الفعّال. وهكذا متى وُجِد مثل هذا الإنسان في المجتمع المدني أصبح هو الملك الرئيس في الحقيقة، حيث ينبغي أن يُقال عنه إنّه الذي يُوحى إليه؛ حيث إنّما يوحى إلى الإنسان متى بلغ هذه الرتبة، وذلك إذا لم يبق بينه وبين العقل الفعّال وساطة[22].

إذاً، رئاسة هذا الإنسان هي الرئاسة الأولى، بينما سائر الرئاسات الإنسانية الأخرى كلّها متأخّرة عن هذه، وكائنة عنها[23]، والذين يقعون تحت تدبير هذا الأخير ورئاسته كلّهم أناس أفاضل، وأخيار، وسعداء، نظراً لما يستفيدونه منه من علم، وفضيلة، وتربية حسنة[24].

20 هنا تبرز القناعة الفلسفية للفارابي بضرورة أن تحاكي المدينة الفاضلة صورة الكوسموس المتراتب الأجزاء، والذي يحكمه نظام إلهي أزلي غائي.
21 المصدر نفسه، ص 36
22 المصدر نفسه، ص 79
23 المصدر نفسه، ص 80
24 المصدر نفسه، ص 80

يظهر ممّا سبق أنّ الربط بين مدينة البشر، ومدينة الإله، لدى الفارابي، إنّما يمرّ عبر الفيلسوف- النبي، الذي يتصّل بالعقل الفعّال، وعبره بـ «الأول» الذي يحكم الكون كلّه ويدبّره. وهذا هو جوهر الربط بين الدين والسياسة عند الفارابي كما نعتقد، حيث ينتقل بنا فيه من الكلام في الإلهيات والكونيات إلى الحديث عن الاجتماع والسياسة، عبر التشابه الذي يقيمه بين رئيس الكون، الذي هو الله تعالى، ورئيس المدينة الفاضلة الذي هو الفيلسوف- النبي[25].

إنّه انتقال من نظام الكون (الكوسمولوجيا) إلى نظام الاجتماع البشري المدني، الذي تتحقّق فيه السعادة كلّما كانت آراء أهله فاضلة وصحيحة[26]؛ أي مستمدّة من الفلسفة النظرية الحقيقية الموافقة لما هو عليه واقع حال الكون، وحقيقة الاجتماع الفاضل؛ ومن هنا، تصبح المدينة الفاضلة البؤرة التي تتواشج فيها السياسة بالدين. كيف ذلك؟

ثانياً: أنموذجيّة المدينة الفاضلة في الجمع بين الديني والسياسي:

رأينا، في المحور السابق، كيف يقيم الفارابي الاتصال بين مدينة الله (الكون)، ومدينة الإنسان (المدينة الفاضلة)، انطلاقاً من تصورات خاصّة في الكوسمولوجيا والإلهيات، وهي تلك الآراء التي يستثمر فيها نظريات فلسفية يونانية واسكندرانية: نظرية أرسطو في النفس والفيزياء، ونظرية أفلاطون في الملك الفيلسوف، ثم ميتافيزيقا نظرية الفيض الأفلاطونية، وكلّ ذلك لأجل أن ينشئ تصوراً جديداً للاجتماع الإنساني يدمج فيه هذه العناصر من جهة، ويوفّقها مع مقتضيات المجال التداولي الإسلامي من جهة أخرى.

لقد كان من الضروري لمثل هذا الخلط العجيب أن يفضي إلى توليفة فلسفية تجعل كلّاً من السياسة، والدين، والأخلاق، لا ينفصل الواحد منها عن الآخر. ونتيجةً لذلك، أنشأ الفارابي تصوّراً للمدينة الفاضلة، والسياسة المدنية الفاضلة، يختلف فيه عن كلّ من مدينة أرسطو وأفلاطون، ويقترب، من خلاله، إلى تصورات الأفلاطونية المحدثة، التي تعنى بالعقائد والآراء، وبالرئيس الأوّل أكثر من عنايتها بجسم المدينة وشكلها[27].

لذلك، وحسب هذا التصور، تكون المدينة البشرية فاضلة، بالنسبة إلى الفارابي، كلّما توافرت فيها شروط معيّنة، نذكر منها، خاصةً، ما يأتي:

25 يبلور الفارابي هذه الأطروحة بكثير من العناية في كتاب الملّة، وأيضاً في كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، وكتاب السياسة المدنية.

26 الجابري، مرجع سابق، ص 354

27 المرجع نفسه، ص 354

- أن تكون هذه المدينة شبيهة بالمدينة الإلهية (نظام الكون).

- أن تكون آراء أهل هذه المدينة مطابقة لهذا النظام، ومعتقدة بصوابه، وأنّه وحده يمثّل الرأي الصحيح، والعقيدة الحقّة.

- أن يسود في هذه المدينة النظام التامّ بين مكوّناتها، وتكون التراتبية الصارمة بين أهلها حسب مؤهلاتهم المعرفية والأخلاقية.

أمّا بخصوص الشرط الأخير، فإنّ المعلم الثاني يحدّد فيه دور الرئيس الأوّل، انطلاقاً من كونه هو من يرتّب طوائف المدينة كلّ حسب طبيعته، وقدراته الفطرية والعقلية؛ ثم بعد ذلك متى أراد أن يحدّد هذا الرئيس الأوّل وصية في أمر ما، حيث يريد أن يحمل عليه المدينة، أو طائفة من أهلها، لينهضهم نحوها، فإنّه يوعز بذلك إلى أقرب المراتب إليه، ثمّ إلى من يليهم، ثمّ لا يزال كذلك حتى يصل في ذلك إلى من رتّب للخدمة في ذلك الأمر. وبذلك تكون هذه المدينة مرتبطة أجزاؤها بعضها ببعض، ومؤتلفة بعضها مع بعض، ومرتبة بتقديم بعض، وتأخير بعض[28].

هكذا، تصير المدينة شبيهة بالموجودات الطبيعية، ومراتبها شبيهة، أيضاً، بمراتب هذه الموجودات، التي تبتدئ بالأوّل وتنتهي بالمادة الأولى والأسطقسات، فيكون ارتباطها وائتلافها شبيهاً بارتباط الموجودات المختلفة بعضها ببعض، وائتلافها في الكون. أمّا مدبّر هذه المدينة، فهو، أيضاً، شبيه بالسبب الأوّل، الذي عن طريقه يتمّ وجود سائر هذه الموجودات[29].

يظهر من زعم الفارابي هذا أنّ السياسة المدنية الفاضلة لها مهمّة بيان هذا الشبه القائم بين المدينة البشرية الفاضلة المرتبة جيّداً ونظام الكون الكامل التنظيم، ومن ثم تمثّل خير تمثيل تلك الكيفية التي عنها يجب اعتقاد الآراء الصحيحة في الكون والوجود (الكوسمولوجيا، والميتافيزيقا، والإلهيات)، ثمّ في المدينة والاجتماع البشري (السياسة، والأخلاق). من هنا، نجد الفارابي لا يفصل في علمه المدني (سياساته) بين كلّ من الأخلاق، والسياسة، والعلم الإلهي، وذلك لكون الغاية واحدة هي نيل السعادة الحقّة، التي هي غاية الوجود.

إذاً، بلوغ السعادة إنّما يكون بزوال الشرور الإرادية والطبيعية عن المدن وعن الأمم، وأن تحصل لها الخيرات كلّها: الطبيعية والإرادية، عن طريق تبنّي الآراء الواردة في العلم الإلهي في الممارسة السياسية،

28 الفارابي، السياسة المدنية، ط2، ص 83

29 المصدر نفسه، ص 84

وجعلها دليل الفعل المدني الفاضل. هنا يكون دور رئيس المدينة الفاضلة، الذي هو الملك الفيلسوف، أن يدبّر الاجتماع المدني تدبيراً فاضلاً ترتبط به أجزاء هذه المدينة بعضها ببعض، وتأتلف، وترتّب ترتيباً يتعاونون به على إزالة الشرور، وتحصيل الخيرات، حيث ينظر في كلّ ما أعطته الأجسام السماوية، فما كان منها مُعِيناً ملائماً بوجه ما، ونافعاً بوجه ما في بلوغ السعادة، استبقاه وزاد فيه، وما كان ضاراً اجتهد في أن يصيره نافعاً. أمّا ما لم يكن ذلك فيه، فأبطله أو قلّله. وبالجملة، كما يقول الفارابي:

«يلتمس إبطال الشرّين جميعاً، وإيجاب الخيرين جميعاً»[30].

ثم أيضاً، من مهمّة العلم المدني، الذي هو السياسة بمعنى آخر، أن يعرّف للناس، عبر الفيلسوف-النبي، مبادئ الموجودات القصوى، ومراتبها، والسعادة، والرئاسة الأولى للمدينة الفاضلة، ومراتب رئاستها؛ ثمّ بعد ذلك، الأفعال المحدودة التي إذا فُعِلت نيلت فيها هذه السعادة، وأن لا يقتصر على أن تعلم هذه الأفعال دون أن تُعمَل، ويؤخذ أهل مدينته بفعلها[31].

ولعلّ ما يُلاحظ، هنا، أنّ الأشياء التي يحثّ الفارابي على تعلّمها، والعمل بها، كلّها لا تخرج عن تلك الآراء التي أقرّها في العلم الإلهي، الشيء الذي يفسّر توظيفه للميتافيزيقا والعلم الإلهي لتشييد مدينته الفاضلة؛ لذا لا يتعلّق الأمر، هنا، بعرض الكيفية التي يحصّل بها الفيلسوف-النبي المعرفة، التي ترفعه إلى مستوى الرئاسة الأولى للمدينة الفاضلة فحسب؛ بل ينبغي، أيضاً، أن يوجد هو أوّلاً، ثم يكون هو السبب في أن تحصل المدينة وأجزاؤها[32]، وذلك، تماماً، مثلما يكون عضو القلب في الجسد هو الرئيس الأول لباقي الأعضاء؛ لأنّه يتكوّن أوّلاً قبل أن يتكوّن الدماغ، والكبد، وغيرها من الأعضاء الأخرى[33].

ولتأكيد هذه الفكرة، ينساق المعلم الثاني وراء تلك التصورات البيولوجية والطبيعية السائدة في زمنه، ليدعم بها نظريّته في أهمية الرئاسة الأولى «للفيلسوف النبي»[34]، في المدينة الفاضلة، على ما دونه، فيشبّه المدينة الفاضلة بالبدن، وأجزاءها بأعضاء البدن، ورئيسها بالقلب. يقول:

30 المصدر نفسه، ص 84

31 المصدر نفسه، ص ص 84 – 85

32 الجابري، العقل الأخلاقي، مرجع سابق، ص 360

33 يوظّف الفارابي، هنا، حجّة المثال لتبرير موقفه القاضي بترؤس الرئيس الأول للمدينة الفاضلة، باعتباره مبدأها الأول، ويضرب لذلك مثال: عضو القلب الذي كان الطب القديم لجالينوس ينظر إليه على أنّه أوّل عضو يتشكّل في البدن.

34 يجب الاعتراف بأنّ نظرية «النبي الفيلسوف» بمثابة حجر الزاوية في الفلسفة الملّية: المدنية والسياسية عند الفارابي، حيث تأتّى له عبرها الجمع بين الدين والسياسة، وبين الفلسفة والملّة، من جهة ثانية.

«فكما أنّ العضو الرئيس في البدن هو، بالطبع، أكمل أعضائه وأتمّها في نفسه وفيما يخصّه، وله من كلّ ما يشارك فيه عضو آخر أفضله، ودونه، أيضاً، أعضاء أخرى رئيسة لما دونها، ورئاستها دون رئاسة الأولى، وهي تحت رئاسة الأول تَرأَس وتُرأَس، كذلك رئيس المدينة الفاضلة هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصّه؛ وله من كلّ ما شارك فيه غيره أفضله، ودونه قوم مرؤوسون منه، ويرأسون آخرين»[35].

ثمّ يضيف:

«وكما أنّ القلب يتكوّن أوّلاً، ثمّ يكون هو السبب في أن تكون سائر أعضاء البدن، والسبب في أن تحصل لها قواها، وأن تترتّب مراتبها، فإذا اختلّ منها عضو كان هو المرفد بها، يزيل عنها ذلك الاختلال، كذلك رئيس المدينة، ينبغي أن يكون هو أوّلاً، ثمّ يكون هو السبب في أن تحصل المدينة وأجزاؤها، والسبب في أن تحصل الملكات الإرادية التي لأجزائها في أن تترتّب مراتبها، وإن اختلّ منها جزء كان هو المرفد له بما يزيد عنه اختلاله»[36].

يتبيّن من هذا الكلام: أنّ الفارابي يُولي أهمية قصوى لمسألة التراتبية والنظام داخل مدينته الفاضلة؛ فكما أنّ البدن خاضع لنظام تراتبي فزيولوجي، كذلك على المدينة الفاضلة أن تكون على الشاكلة نفسها؛ أي مرتّبة تراتباً صارماً تصبح الأفضلية فيها للأحسن شرفاً فالأحسن. ولعلّ النقد الموجّه إلى المدن الجاهلية المناقضة للمدينة الفاضلة، إنّما ينبني، أساساً، على عدم إيمان أهل تلك المدن بمثل هذا التراتب والنظام الذي هو قانون الكون، إضافةً إلى فساد تصوراتهم حول مبادئ الموجودات، والسعادة الحقيقية المشروطة بهذه الخطاطة. فمثلما أنّ النظام والتراتب سنّة من سنن الكون، فإنّه، كذلك، فضيلة من فضائل المجتمع الصالح. يعبّر المعلم الثاني عن ذلك بقوله:

«فكلّ جزء من أجزاء المدينة فيه رئيس لا رئيس فوقه من أهل تلك الطائفة، وفيه مرؤوس ليست له رئاسة على إنسان أصلاً، وفيه من هو رئيس لمن دونه، ومرؤوس لمن فوقه»[37].

إنّ المدينة الفاضلة، إذاً، هي مراتب ودرجات حسب استعدادات أهلها المعرفية والأخلاقية؛ وهذا ما يجسّده تأكيد الفارابي أنّ مراتب أهل المدينة الفاضلة في الرئاسة والخدمة إنّما تتفاضل حسب فطر أهلها، وحسب الآداب التي تأدّبوا بها. فالرئيس الأوّل هو الذي يرتّب الطوائف، وكلّ إنسان من كلّ طائفة، في المرتبة

35 الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 99
36 الفارابي، فصول منتزعة، ص 66
37 المصدر نفسه، ص 67

التي هي استيهاله، وذلك إمّا مرتبة خدمة، وإما مرتبة رئاسة. فتكون هناك مراتب تقرب من مرتبته، ومراتب تبعد عنها قليلاً، ومراتب تبعد عنها كثيراً. وتكون تلك مراتب رئاسات، فتنحطّ عن الرتبة العليا قليلاً، إلى أن تصير إلى مراتب الخدمة، التي ليست فيها رئاسة، ولا دونها مرتبة أخرى[38].

يظهر، في هذا التراتب، أن تدرّج أهل المدينة الفاضلة إنما يرجع، بالدرجة الأولى، إلى تدرّج قدراتهم العقلية، وكيفية استخدامها، وهي، بذلك، تشبه تدرّج الموجودات الكونية في نظام الكون، وتراتب أعضاء البدن. ففي المدينة يفضّل بعض الناس بعضهم الآخر في المرتبة الاجتماعية بمقدار ما يفضلهم في المرتبة العقلية. فالذين يقدرون منهم على التعقّل (Phronésis) والتخيّل، حسب الفارابي، أقوى ممّن لا يستطيعون استنباط الأمور وتعقّلها إذا ما هم تخيّلوها؛ ومن يتقن منهم التخيّل أقوى ممن لا يستطيع إلا اتباع ما رسم له احتذاؤه في أمور أخرى؛ وأدنى هؤلاء جميعاً من ينقاد انقياداً أعمى للوصايا التي يتلقاها من أعلى[39].

نجد هذا مفصّلاً عند الفارابي في (**فصول منتزعة**)، كما في كتاب (**السياسة المدنية**)، حيث يقول فيه:

«حين يؤكّد أنّ الإنسان إذا كان يعمل عملاً ليبلغ به غايةً معيّنةً، كان يستعمل شيئاً ما هو غاية لفعل يتولّاه إنسان آخر؛ فإنّ الأوّل رئيس ومقدّم على الثاني في المرتبة. كذلك متى كان اثنان غايتهما واحدة بعينها، وأحدهما أتمّ تخيّلاً لتلك الغاية، وأكمل فضيلة، وله تعقّل يستنبط به جميع ما يوصل به إلى تلك الغاية، فإنّ هذا هو رئيس على الثاني الذي له ذلك. أمّا دون هذا، فمن تخيّل الغاية من تلقاء نفسه، ولكن لا تكون له رؤية كاملة يوفي بها جميع ما ينال به الغاية، ودون هذا من لا يتخيّل الغاية من تلقاء نفسه، ولا تكون له، أيضاً، رؤية؛ ولكن كان إذا أُعطي الغاية وخيّلت إليه، ثم أُعطي مبدأ الرؤية قدر على أن يحتذي في الباقي حذو ما رسم له، فيعمل أو يستعمل غيره فيه. ودون هذا، كذلك، من لا يتخيّل الغاية، ولا له رؤية، ولا، أيضاً، كان إذا أُعطي مبدأ الرؤية، قدر على استنباط الباقي، ولكن إذا أوصي بكلّ ما ينبغي أن يعمل في بلوغ تلك الغاية حفظ الوصية، وكان من كلّ النفس منقاداً»[40].

يبيّن هذا التراتب أنّه إذا كانت المدن تتفاضل فيما بينها، حسب آراء أهلها، من فاضلة إلى جاهلة، فضالّة وفاسقة، كذلك يتفاضل الناس داخل المدينة الفاضلة، التي هي كيان واحد، كلّ حسب قدراته الفطرية والعقلية. إنّ المعلم الثاني لا يُخالف، هنا، أستاذه في السياسة أفلاطون، الذي نصادف لديه في الجمهورية تدرّجاً

38 المصدر نفسه، ص 83

39 بن عبد العالي ع، مرجع سابق، ص ص 74 – 75

40 الفارابي، فصول منتزعة، تحقيق فوزي متري النجار، دار المشرق، بيروت/ لبنان، الطبعة الثانية، سنة 1993، ص ص 67- 68

صارماً لطبقات أهلها يخضع لأساس معرفي صارم. غير أنّ الفارابي لا يذكر أسماء مضبوطة لمراتب هؤلاء الناس، كما يفعل أفلاطون؛ بل يكتفي، في غالبية نصوصه، بتفرقته الشهيرة بين الخاصّة والعامّة إلّا في التصنيف الذي يوجد في كتابه (**فصول منتزعة**)، عندما يتحدّث عن الأفاضل، وذوي الألسنة، والمقدّرين، والمجاهدين، والماليين[41].

لذلك، الأفاضل هم الحكماء والمتعقّلون، وذوو الآراء في الأمور العظام، ثم يأتي بعدهم حَمَلَة الدين، وذوو الألسنة، وفيهم الخطباء، والبلغاء، والشعراء، والملحّنون، والكتّاب، ومن يجري مجراهم. أمّا المقدّرون، فهم الحسّاب، والمهندسون، والأطباء، والمنجمون، ومن يجري مجراهم. بينما المجاهدون هم المقاتلة، والحفظة، ومن جرى مجراهم، وعدّ فيهم (الجند والعسكر). والماليون هم مكتسبو الأموال في المدينة، مثل الفلاحين، والرعاة، والباعة، ومن جرى مجراهم[42].

وهكذا، يُلاحظ أنّ تصنيف الفارابي لأهل المدينة الفاضلة يبقى تابعاً، في بنيته، لتراتبية المعارف والقدرات العقلية؛ وذلك لأنّ المعارف النظرية، عنده، يبدأ تدرّجها، دائماً، بالحكمة التي تأتي في المرتبة الأولى، فيتدرّج منها، مروراً بالعلوم الدينية، والخطابية، والبلاغة، فالشعر، والموسيقا، والحساب، والطب، إلى آخره؛ لذا، غالباً ما يوازي الفارابي بين تدرّج هذه المعارف، وتدرّج طرق البرهان من اليقين إلى الإقناع فالتخيّل؛ ومن ثمّ نجد أن فئة الخاصّة من الناس، عنده، هم الذين يمتلكون من العلم ما يحتوي على المعقولات ببراهين يقينية. أمّا الباقون، فكلّهم عامّة لا يرتقون إلى تلك المرتبة.

لذلك ليس التراتب الاجتماعي داخل المدينة الفاضلة نتاج القول بحركية اجتماعية أو سياسية محددة؛ بل نتاج القول بالطبائع والفطر المترتّبة على تشبيه بنية المدينة الفاضلة ببنية الكوسموس فحسب، باعتبار الكون مدينة الإله التي تتراتب فيها الموجودات من الأعلى إلى الأدنى شرفاً، فتُخضِع الأدنى منها للأعلى.

إذاً، أجزاء المدينة الفاضلة مفطورون، بالطبع، بفطرٍ متفاضلة يصلح بها كلّ إنسان لشيء دون آخر[43]؛ لذا يحتاج أهلها، دوماً، إلى مرشد يدلّهم إلى طريق الحقّ والسعادة؛ لأنّه، ولأجل كلّ ما قيل في اختلاف الفطر في أشخاص الإنسان، ليس في فطرة كلّ إنسان أن يعلم من تلقاء نفسه السعادة، ولا الأشياء التي ينبغي أن

41 المصدر نفسه، ص ص 65- 66

42 الفارابي، المصدر نفسه، ص 66

43 الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، (م.س)، ص 119

يعملها؛ بل يحتاج، في ذلك، إلى معلم ومرشد[44]، وهذا الأخير هو الذي ينبغي أن يُقال فيه: إنّه رئيس المدينة الفاضلة، الذي هو قطب الرحى في بنيتها؛ لأنّه عبره وحده يتحقّق ويتأسّس كيانها السياسي والمدني.

إن هذه الطريقة، التي تَصَوّر فيها الفارابي مهمّة الرئيس الأوّل، في مدينته الفاضلة، ضمن صيغة العلاقة بين الإلهيات والسياسة، هي نفسها الكيفية التي يتوقّف عليها تدبير الله للكون، مع فارق أنّ الله يدبّر الكون، ويدبر المدينة الفاضلة، معاً، عبر رئيسها الفيلسوف النبي، بينما رئيس هذه الأخيرة يدبّر أفراد مجتمعه فحسب.

إذاً، المجتمع المدني، وبنيته، وتدبيره، والعلاقة بين رئيسه الأوّل وفئاته، كلّ ذلك يخضع لتدبير واحد، في النهاية، هو تدبير الله لكونه الكبير، الشيء الذي يفرض القول بسيادة جبرية قويّة توجّه الفعل السياسي في الاجتماع البشري. وترجع هذه الجبرية، التي تحكم هذا المجتمع (المدينة الفاضلة)، أساساً، إلى ما يقوله الفارابي عن الإلهيات في علاقتها بالسياسة، لاسيّما في تصوّره للعقل الفعّال في علاقته بالرئيس الفيلسوف - النبي، الذي يتلقّى منه هذا الأخير فيض الصور العقلية، التي تجعله قادراً على تعقّل الوجود، ومن ثم تملّك مبادئ التدبير الصحيح للحياة المدنية.

ممّا سبق، يتّضح أنّ دور الرئيس الأوّل في المدينة الفاضلة قد أصبح محورياً؛ بل يلزم اعتباره بمثابة الأساس العقلي الذي يوجّه المجتمع ليوحّده اجتماعياً، وسياسياً، وحتى فكرياً؛ لذا يمكن اعتبار دولة الفارابي المثالية (المدينة الفاضلة) دولة العقل، وسياسته سياسة دينية وفلسفية معاً، حيث رئاسة الحكم فيها للفيلسوف والنبي، باعتبارهما متّصلان بالعقل الفعّال، وهما القادران على أن يحقّقا لها غاياتها الحقيقية، التي هي تحقيق السعادة الكاملة، كخير أسمى لا يمكن الوصول إليه إلا عبر تبنّي الآراء الصحيحة في السياسة، والدين، والعلم، وكذا القيام بالأفعال الخيّرة والجميلة داخل معمعة هذا الاجتماع المدني.

لقد أسّس الفارابي حقيقة مدينته الفاضلة اعتماداً على نظرية الفيض لعقلنة[45] مسألة التدبير السياسي، وتقريب تصوّرات الفلسفة من تصورات الدين عن طريق تفسير النبوّة تفسيراً عقلانياً بقصد إنشاء مجتمع مدنيّ فاضل متوافق مع متطلّبات العقل، ومقتضيات الدين الإسلامي معاً، امتثالاً لمشروعه الفلسفي العامّ القائم على مشروعية التوفيق بين الحكمة والدين. فماذا كانت النتيجة من كلّ ذلك؟

44 الفارابي، السياسة المدنية، (م.س)، ص 78

45 المصباحي، محمد، من المعرفة إلى العقل، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1990م ، ص 33

كانت نتيجة ذلك تأسيس كوسمولوجيا سياسية تداخل فيها العلم الإلهي بالعلم السياسي، وذلك ما يفسّر اعتماد مقاربة فلسفية سياسية للمدينة الفاضلة، انطلاقاً من أفكار الفارابي في الكون، والميتافيزيقا، والدين، ونظرية النبوّة الملّية، التي تقوم على دعائم سيكولوجية أرسطية. وقد أفضى هذا الجمع والخلط إلى أن تداخل عنده كلّ من: الأخلاق، والسياسة، والدين، والطبيعيات، والكونيات الكلاسيكية.

لذلك، عمد فيلسوفنا إلى استنباط صورة فلسفيّة لمدينته الفاضلة من نظريته الفكرية في الإلهيات وطبيعة الوجود، كما يراه فلسفياً، ما عكس، عنده، حقيقة الترابط الوطيد القائم بين الفلسفتين: النظرية والعملية من جهة، وبين الدين والسياسة من جهة أخرى، ثمّ بين الفلسفة والملّة ككلّ[46].

لهذا السبب، نرى أنّ فلسفة الفارابي السياسية انعكاس لفلسفته الميتافيزيقية، نظراً لما تستقيه منها من نظام وتسلسل، وهذا ما يفسّر لنا إيمانه القوي بوحدة الدين والسياسة؛ لذا نَعُدُّ كلامه في الرئاسة، ونظرية الفيلسوف - النبي، نوعاً من تأسيس السياسة، التي يختلط فيها النيوطيقي (أي العقل بالمعنى الكلاسيكي) بالثيوقراطي (أي الحكم باسم الإله)، ولعمري كم يسمح مثل هذا القول بالحكم الجبري السلطوي المستبد؟

خاتمة الموضوع:

يتبيّن ممّا تقدّم، من جمع الفارابي بين الديني والسياسي، أنّ الغرض منه كان إضفاء نوع من المعقولية النظرية والميتافيزيقية على الأمور السياسية والدينية، حتى تستجيب لتصوّراته في بناء الموجودات في ملكوت الله، بما هي مسألة اعتقادية دينية من صلب مجتمعه الديني الإسلامي. ولقد قام الفارابي بهذا العمل من أجل البحث عمّا يسمح له بإيجاد أساس نظري عقلاني لـ«مدينته الفاضلة»، التي كان يريدها أن تكون نقيضاً إيجابياً للمدن الجاهلية المرفوضة في نسقه الفلسفي، باعتبارها مدن هوى، وفوضى، وغياب العقل والاعتقاد السليم.

من جانب آخر، يمثّل هذا التصور النظري جواب الفارابي الفلسفي غير المعلن على أزمة عصره العباسي الأخير، الذي شهد تفكّكاً سياسياً، وانحلالاً أخلاقياً للاجتماع المدني لم يعرف له المجتمع الإسلامي مثيلاً من ذي قبل. لكن هل كان فيلسوفنا ناجحاً في بلورة ذلك الجواب الفلسفي السياسي العقلاني المنتظر منه كمنظّر لعصره؟

46 على خلاف الذين لا يؤمنون بالتوفيق بين الدين والفلسفة، مثل السجستاني، الذي يؤمن بأنّ لكلّ واحد منها مبادئه المنفصلة عن الآخر، يرى الفارابي أنّ الحقيقة واحدة، وما الدين إلا تعبير عنها بلغة مألوفة للعوام، مزوّد بالأدوات التي يزوّده بها المنطق، بينما الفلسفة تعبّر عنها بلغتها العلمية البرهانية، التي من شأن غير الفلاسفة أن لا يفهموها. انظر: نبيل، عماد، مجموعة من رسائل الفارابي، تحت عنوان: الثمرة المرضية في بعض الرسائل الفارابية، دار الفارابي، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، 2012م، ص 94

يصعب حسم الجواب بالإيجاب؛ لأنّه حتى أولئك الذين كان يفترض فيهم أن يتلقوا رسالته الفلسفية والسياسية تلك بنوعٍ من القبول (أي، أساساً، الفلاسفة الذين جاؤوا بعده: كابن سينا، وابن باجة، وابن رشد)، لم يعيروا، من جهتهم، الجوانب السياسية اهتماماً كبيراً في انشغالاتهم الفكرية إلا فيما ندر[47].

لكن ما هو مؤكّد منه، على خلاف ذلك، أن أطروحة الفيلسوف الفارابي، في الجمع بين السياسة والدين، هذه، قد أسّست لاستبداد مطلق باسم الفلسفة النظرية هذه المرّة، تماماً كما سبقه إلى ذلك ملهمه في السياسة أفلاطون في كتابه (**الجمهورية**)؛ لذلك نحسب أن تجربة الخلط بين السياسة واللاهوت، استناداً إلى هذه التجربة، هو ما يشكّل المدخل النظري لتبرير الاستبداد باسم المعقولية الفلسفية. يجعل هذا الكلام راهنيّة قول الفارابي الفلسفي في السياسات بعيدة المنال، بله أنه لا يوافق العصر أبداً، وتلك هي النتيجة التي نقترح الخلوص إليها من خلال هذه القراءة.

47 باستثناء ابن رشد، الذي خصّص مؤلفاً له للسياسة سمّاه «الضروري في السياسة»، وهو، في الأساس، شرح لكتاب الجمهورية لأفلاطون، لم يخلّف الفلاسفة الآخرون سوى بعضٍ من الرسائل الفلسفية الصغيرة في السياسة، كابن سينا مثلاً.

المصادر والمراجع

مصادر البحث:

- الفارابي، أبو نصر:

- **السياسة المدنية**، تحقيق فوزي متري النجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1964م.
- **تحصيل السعادة**، تحقيق جعفر آل ياسين، دار الأندلس، الطبعة الرابعة، (د.ت).
- **كتاب الملة ونصوص أخرى**، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة 2001م.
- **آراء أهل المدينة الفاضلة**، تحقيق ألبير نادر، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثامنة، سنة 2002م.
- **فصول منتزعة**، تحقيق فوزي متري النجار، دار المشرق، بيروت/ لبنان، الطبعة الثانية، سنة 1993م.
- **كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين**، تقديم وتعليق ألبير نادر، دار المشرق، بيروت/ لبنان، ط 5، سنة 2001م.
- **كتاب الحروف**، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت/ لبنان، سنة 1970م.
- **رسالة في السياسة الشرعية**، ضمن مجموعة رسائل السياسة الشرعية، تحقيق أحمد فريد المزيدي ومحمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ط1، 2003م.

مراجع البحث:

- العاتي، إبراهيم، **الإنسان في فلسفة الفارابي**، دار النبوغ، بيروت/ لبنان، ط1، سنة 1998م.

- آيت حمو، محمد، **الدين والسياسة في فلسفة الفارابي**، دار التنوير، بيروت/ لبنان، سنة 2011م.

- الأردكاني، رضا الداوري، **الفارابي مؤسس الفلسفة الإسلامية**، تعريب عبد الرحمن العلوي، دار الهادي، بيروت/ لبنان، ط1، سنة 2004م.

- عبد الله، موسى، **المدينة والأخلاق في خطاب الفارابي**، دار الروافد الثقافية وابن النديم، بيروت/ لبنان، ط1، سنة 2013م.

- الجابري، محمد عابد، **العقل الأخلاقي العربي**، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، الطبعة الأولى، سنة 2001م.

- المصباحي، محمد، **من المعرفة إلى العقل**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1990م.

- مهدي، محسن، **الفارابي وتأسيس الفلسفة السياسية الإسلامية**، ترجمة وداد الحاج حسن، دار الفارابي، الطبعة الأولى، سنة 2009م.

- بن عبد العالي، عبد السلام، **الفلسفة السياسية عند الفارابي**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة 1997م.

- نبيل، عماد، **الثمرة المرضية في بعض الرسائل الفارابية**، دار الفارابي، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2012م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2015

جميع الحقوق محفوظة © 2015